ميسرة أبوحمدية

رحلة عذاب في السجون الإسرائيلية نهايتها الموت

الخليل: دنيا انعيم

حالة من الصدمة وخيبة الأمل ألمت بعائلة الأسير ميسرة أبو حمدية، عند سماعهم لنبأ استشهاده، خبر كان كوقع الصاعقة على عائلته التي كانت بانتظار قدومه للعلاج في الأردن حيث يقيمون، وذلك بعد وعودات تلقتها العائلة بالإفراج عن ابنهم بناءً على التماس تقدمت به وزارة شؤون الأسرى والمحررين الفلسطينية، لدى مصلحة السجون الإسرائيلية للإفراج عن الأسير بأسرع وقت ممكن.

خبر كان بمثابة بارقة أمل لأم طارق وأبنائها، الذين كانوا في انتظار قدوم أبي طارق ليحتضن أبناءه، فبعض من أبنائه لم يشاهدوا والدهم منذ عدة سنوات، إلا أن الموت حال بينهم، فاحتضنوه وهو جثة هامدة لا حول له ولا قوة.

تقول أم طارق: «كنت اقرأ الشريط الإخباري على إحدى الفضائيات، وإذ بخبر استشهاد زوجي يظهر على الشاشة، صدمت للوهلة الأولى، وأمسكت بالهاتف مسرعة واتصلت بشقيقة أبي طارق لاستفسر عن الخبر، تمنيت أن يكون الخبر غير صحيح، إلا أن الموت كان قد خطف أبي طارق منا، فحالة الإطمئنان التي كانت تختلجني لم تدم».

تضيف أم طارق: «قمت بزيارته قبل حوالي شهر من استشهاده، كان نحيل الوجه وعلامات التعب والإرهاق بادية عليه، فقد خسر كثيراً من وزنه، وكان لا يقوى على الحركة، زملاؤه هم من كانوا يقومون بنقله من مكان لآخر».

تتابع زوجته قائلة: «في الفترة الأخيرة كان يرفض الذهاب للمستشفى، لأن الذهاب كان يمثل رحلة عذاب بالنسبة له، حتى أنه أوصى زملاءه بأن لا يطلبوا من إدارة مصلحة السجن أخذه للمستشفى، حتى لا تتكرر رحلة الألم والمعاناة مرة أخرى، التي كانت تمثل حالة من الرعب لزوجي، حتى بعد وفاته بقي مكبل اليدين والقدمين، فهذا متوقع من عدو لا يعرف الرحمة ولا الشفقة».

«نحن فقدنا عزيز وبطل، لكن الحمد لله هو مرتاح الآن، فقد ارتاح من العذاب ومن السجن ومن حقد السجان، الذي كان يتربص له «. بتلك الكلمات ختمت أم طارق حديثها.

اعتدال أبو حمدية شقيقة الشهيد الكبرى، ساهمت من خلال الوقفات التضامنية التي كانت تقوم بها في نقل بعض من معاناة شقيقها، وكانت في طريقها للخروج لاعتصام تضامني معه ومع الأسرى في سجون الاحتلال، عند سماعها نبأ استشهاده.

تقول شقيقة الشهيد: «كان صعباً علي كثيراً أن أودعه، ولكن ما واساني أن عدداً كبيراً من المواطنين قدموا للمشاركة في تشييع جثمانه، والذي أبهجني وأسرني أكثر من ذلك، أن أعلام جميع الفصائل الفلسطينية كانت حاضرة في جنازته، وهو ما يعكس توجه شقيقي الوحدوي والتوافقي.

وتمنت اعتدال أبو حمدية، أن يكون استشهاد شقيقها عبرة ودرس للسلطة الوطنية الفلسطينية ولجميع الفصائل، من أجل العمل الجاد لتحرير جميع الأسرى، تتساءل اعتدال: «هل سننتظر حتى يصبح الشباب شيوخاً في السجون الإسرائيلية، ثم نقول نريد الإفراج عنهم؟.

بدوره اعتبر رئيس نادي الأسير الفلسطيني قدورة فارس، أن ما حدث مع الأسير الشهيد أبو حمدية، جريمة حرب من الدرجة الأولى، نظراً لسياسة الاهمال الطبي التي اتبعتها معه مصلحة السجون الإسرائيلية والتي أدت إلى تفاقم وضع أبو حمدية الصحي، وهو ما تسبب باستشهاده.

وأكد فارس، أن انضمام السلطة الوطنية الفلسطينية لمحكمة الجنايات الدولية مسألة مطلوبة.

يقول فارس: «كنا دائماً نشكو من أن الوضعية القانونية لمنظمة التحرير الفلسطينية في مؤسسات الأمم المتحدة، لم تكن تسمح لنا للتقدم بأية شكوى ضد الاحتلال الإسرائيلي، أما الآن فقد حصلنا على الاعتراف، لذا يفترض أن نقوم بالخطوات اللاحقة.

ونوه رئيس نادي الاسير، إلى أنه إذا اقتضى الأمر سنضغط من أجل الإنضمام وبشكل سريع لتلك المنظمات الدولية، والتوقيع على الاتفاقيات، حتى نصبح جاهزين لرفع مثل هذه القضايا».

استشهد أبو حمدية بسرطان نهش جسده وانتشر به كانتشار النار في الهشيم، سرطان في انتظار نهش أجساد ٢٥ أسيراً آخرين، في حال استمرت مصلحة السجون الإسرائيلية باتباع سياسة الاهمال الطبي بحقهم وبحق أسرى آخرين، حسب ما أفاد تقرير صدر عن وزارة شؤون الأسرى والمحررين.

رحل أبو حمدية تاركاً وراءه رفاقاً يعانون أقصى درجات الألم والمعاناة، فهناك معتصم رداد وسامر العيساوي وفواز بعارة وغيرهم كثيرون، ينتظرهم خطر الموت في أية لحظة.

باستشهاد أبو حمدية، يرتفع عدد شهداء الحركة الأسيرة إلى ٢٠٧ شهداء، من بينهم ٥٢ شهيداً قضوا نتيجة الإهمال الطبي المتعمد داخل السجون الإسرائيلية، حسب ما أعلن مجلس منظمات حقوق الإنسان الفلسطينية.

تدفع الثمن مرتين!!

خلود بدار

ككل الأسيرات؛ أمضت سنواتها مرهقة يهدّها المرض، وتقلقها هواجس المستقبل البعيد. انتظرت طويلاً، لتسمع سجّانها يعلن أخيراً عن موعد الإفراج عنها، الذي تكرر كثيراً على مدار أعوام. لم تكن سنوات السجن وحدها هي التي أرهقت جسدها وعقلها، ولكن عيشَ أطفالها التسعة وحدهم هناك في الخارج، وعجزها كأم عن تلبية احتياجاتهم العاطفية والنفسية.

كان يوم اعتقالها يوماً عصيبا للغاية، ولم يكن صدفة، فقد اعترف عليها أقرب الناس إليها، فانتزعها الجيش من بين أطفالها، وألبسها تهمة حب الوطن والدفاع عنه، وحكم عليها لسنوات عديدة، لا يهمنا عددها بقدر ما يهمنا نوعيتها. على مدار سنوات مثقلة بالهم والأحزان، كان قلب هذه الأم يخفق بعيداً عن أطفالها، تبكيهم ليل نهار، وتشتاق لرؤيتهم واحتضانهم. كبروا في غيابها، تزوجت ابنتها الكبرى بعيداً عنها، لم تستطع أن تبكيها ككل الأمهات، وأن تسلمها لعريسها كما هو مفترض أن يكون، لم يتسنَ لها أن تقدم لها نصائحها كما يجب، لكنها رقصت في ذاك اليوم لوحدها في الزنزانة، وأرسلت لها زغاريدها عبر الأثير.

مُنع أبناؤها من الزيارة، وحُرموا من حضن أمهم سنوات طويلة، كانت الأقسى والأصعب. تكالبت عليها الأمراض، ولم يكن سجانوها بحالة إنسانية، تسمح لهم بمنحها العلاج الملائم. دفعت ثمن الحرية آلاماً ودموعاً وقلقاً منساباً لم تعرفه من قبل. بدأ أبناؤها يتخرجون من المدرسة، ومن الجامعة، وقد حُرمت من فرصة تعليمهم، أو الاحتفال بتخرجهم، وفُقدت تلك الأيام التي يفترض أن تكون الأحلى، التي تُصنع فيها أجمل الذكريات، وأغلى اللحظات التي تنتظرها كل أم.

لم يكن يدور في خُلد الأسيرة المحررة بعد تلقيها بالأحضان والقبلات والبكاء المرير، أنها ستدفع الثمن مرة ثانية. لكن الثمن سيكون هذه المرة من نوع مختلف، سيكون طعنة في صميم حبها للوطن. خرجت للحرية لتجد سجناً من نوع آخر، ولتعيش ألماً من نوع جديد. بعد خروجها اكتشفت الأسيرة المحررة أن زوجها قد تزوج عليها منذ بضعة أشهر فقط، وأن حياتها لن تعد كسابق عهدها. خرجت لتجد أن أطفالها كبروا كثيراً، وصارت بينها وبينهم فجوات يصعب جسرها، ولكل واحد منهم حياته الخاصة، وعالمه وأفكاره المختلفة كثيراً عن تلك المعتقدات التي اكتسبتها في سنوات سجنها الممتدة. خرجت ووجدت أن العالم كله قد اختلف، وأن حياتها لم تعد كما كانت.

معاناة الأسيرة لا تنتهي بمجرد خروجها من المعتقل، فكثير من الأسيرات بدأن بعد تحررهن يعانين من صراعات جديدة، ربما لم تكن في الحسبان، فصراعها في الأسر لم يكن صراع بقاء فقط، وبعد التحرر ستبدأ بصراعها لاستعادة سيطرتها على بيتها الذي لم يعد كذلك. وصراعها النفسي الذي يبقيها قيد القهر والألم؛ فسنوات السجن قد زادت من اتساع الهوة بينها وبين أبنائها، وبينها وبين زوجها.

الأسيرة لا تفقد فقط أجمل سنوات عمرها وزهرة شبابها في سجن متعفن قذر، ولكنها تفقد أيضا أعز اللحظات وأكثرها حميمية، وتفقد قدرتها على التواصل مع أعز الناس على قلبها. وعلى التأقلم مع الحياة من جديد. وتخسر المستقبل المشرق الذي كانت تحلم به.

سنوات الأسر تعمل على تدمير كل خلية عصبية ونفسية للأسير ولأهله وزوّاره. وبالنسبة للأسيرات وخاصة الأمهات، تكون المعاناة مضاعفة؛ فالسجن لا يمكن أن يكون مكاناً ملائماً لأم تصنع المستقبل، بل هو مكان أعد ليدمر هذا المستقبل الفلسطيني، تحت ذريعة «حب الوطن».